الفصل الثامن :

العمرية سلوك إيماني

العُمرية سلوك إيمانى

كل الناس يعرفون أنهم سيموتون ، ثم يبعثون ، فيقفون بين يدى الله يحاسبهم على كل كبيرة وصغيرة ، تلك المعرفة يقينية ، لا يتطرق إليها أدنى ذرة من الشك ، ومع ذلك فهناك حاجز بين تلك المعرفة وتأثيرها فى حياتهم ، فسلوكهم فى الحياة وأفعالهم وتصرفاتهم لا تنبئ عن تلك المعرفة ، ومن يتأمل أفعالهم لا يجزم أن وراء تلك الأفعال رصيد من تلك المعرفة اليقينية .

بم نسمى تلك الحالة ؟

أو بم نشخصها ؟

هل لأن الحياة – كما يقولون – أخذتهم فى دوامتها الهائلة ، فأصابتهم بالدوار وأفقدتهم اتزانهم وسداد رأيهم وصائب أحكامهم ؟

أم أن للحياة الدنيا سيطرة وهيمنة وإغراء تجعلهم لا يقدرون على مقاومتها ؟

أم أنهم أضعف من أن يقفوا أمام هذا التيار العاتى متزنين ليعطوا كل شىء حجمه الحقيقى ، ويضعوا كل شىء فى مكانه الصحيح ؟

ربما يكون كل ما سبق يشخص الحالة .

وربما يكون السبب فى ذلك أن تلك المعرفة اليقينية لم تتحول إلى إيمان! شتان بين المعرفة والإيمان .

المعرفة لا يلزم أن تترجم إلى فعل ، لأن نطاقها العقل تبدأ منه وتنتهى إليه فهى مجرد عملية إدراكية ، أو إدراك بواسطة حاسة من الحواس وقد لا يترتب عليها إيمان ، بل قد ينتج عن المعرفة كفر وجحود وإنكار .

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١)

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (٣)

المعرفة هنا لم تترق فى طريقها الطبيعى وتتحول إلى علم ، لأن الشىء المنطقى أنى أدرك الشىء بحاسة من الحواس ، ثم بعد ذلك أدرك حقيقة الشىء وهذا هو العلم ، فالعلم هو الطريق إلى الحقيقة ، وكثيرون لا يصلون إليها فى تلك الحياة .

﴿...وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤)

﴿ ...فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٥)

ومن قدر له أن يصل إلى الحقيقة عن طريق العلم فبعون من الله وتوفيقه

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦)

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧)

﴿...قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٨)

ويترقى العلم إلى إيمان ، والإيمان يلزم عنه فعل وعمل ، وليس أى عمل

١- سورة البقـــرة : الآية ٨٩ .
٢- سورة البقـــرة : الآية ١٤٦ .
٣- سورة النحـــل : الآية ٨٣ .
٤- سورة البقـــرة : الآية ٢١٦ .
٥- سورة آل عمران : من الآية ٦٦ .
٦- سورة الأعراف : الآية ٦٢ .
٧- سورة يوسـف : الآية ٨٦ .
٨- سورة يوسـف : الآية ٩٦ .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ... ﴾ (١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٢)

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ... ﴾(٣)

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ... ﴾(٤)

فالأعمال الصالحة مبعثها الإيمان ، ومن هنا جاء الصلاح ، والصلاح يدل دلالة واضحة على وجود الإيمان ، وكأننا لا ننتظر عملا صالحًا من رجل بلا إيمان لأن الإيمان هو الدافع والحافز ، وبدونه ينتفى الحافز إلى العمل الصالح .

وهذا هو الإيمان الحق ، يشحذ النفس الإنسانية ، نور يشيع فى النفس يضىء كل الجوانب المظلمة ، ويطهرها من كل ما من شأنه أن يطمس نقاءها وتقواها

وعدم التفرقة بين المعرفة والإيمان ، ربما يكون سبب الأزمة التى تعيش فيها الشعوب الإسلامية .

ففى زماننا هذا نسمع عن صحوة إسلامية ، ازداد الناس معرفة بالدين . تجده هذا فى أحاديثهم إذا اجتمعوا رجالا أو نساء ، شيوخا أو شبانا ، جل أحاديثهم فى الدين ، هذا حرام ، هذا حلال ، سواء أكان فى المطعم أو المشرب أو الملبس أو المكسب ، الجرائد والمجلات تخصص مساحات لا بأس بها فضلا عن جرائد ومجلات متخصصة فى الدين برامج التلفاز تخصص ساعات متواصلة لتقديم برامج متصلة من قريب أو بعيد بالدين تلك البرامج والقنوات أفرزت دعاة ورجال دين لا بأس بهم يشغلون الناس ويشاغلونهم

١- سورة البقـــرة : الآيـــة ٢٥ .
٢- سورة البقـــرة : الآيـــة ٢٧٧ .
٣- سورة آل عمران : الآيـــة ٥٧ .
٤- سورة الأعـراف : من الآية ٤٢ .

بأمور قد تكون من صلب الدين أو لا تكون . إنهم يملأون أوقات الناس أفضل من أن تملأ بما تبثه القنوات الضالة والمضللة .. هذا شيء طيب ، وندعو الله أن يزداد أكثر وأكثر ويقترب الناس ويتنبهون إلى دينهم ، لأن ذلك هو العاصم من كل شرور ومصائب الحدثان .

ولكن ثمرة كل هذا ... أين هى ؟!

المفروض أن ينعكس كل هذا على حال المسلمين .

تتطور حياتهم ، ترتقى أوضاعهم ، يقوى بنيانهم ، يهاب جانبهم تتوحد صفوفهم تعلو كلمتهم .... الخ

فمثلا العرب قبل مجيء الإسلام كانت أمة ضالة ، تكاد لا تذكر فى العالم حفنة من القبائل والجماعات الرحل ، وفئة تعمل بالتجارة ، يتسكعون على بوابات أسياد العالم، فى ذلك الوقت ، ويخطبون ودهم ورضاهم ، وينظر العالم إليهم نظرة الاستخفاف والاحتقار والهوان ، وتلك النظرة لم تكن متجنية على العرب أو فيها غبن أو ظلم ، فليس لدى العرب آنذاك – ما يقدمونه ، وليس لدى العرب ما تحرص عليه بقية شعوب العالم ، كى يتقربوا إليهم زلفى ، وليس لدى العرب ما يجعل بقية الأمم تخاف من شأنهم أو تهاب أمرهم وجاء الإسلام !

وفى مدة وجيزة تكاد لا تذكر فى عمر الأمم ، ومراحل الشعوب أصبح العرب قوة عالمية ، بل القوة العالمية الوحيدة . ونشرت الخير والعدل والسلام فى أنحاء العالم .

هذا أثر الإسلام فى الجماعة .

هذه هى الثمرة .

هذا هو الحصاد .

هذه هى النتيجة .

فما بالنا فى الحاضر لا نجد ثمرة ولا حصادًا ولا نتيجة ؟!

والدين هو الدين ، والعقيدة هى العقيدة لم يتغيرا .

إذن الذى تغير هى النفوس .

هناك عنصر مغيب عن المعادلة ، لذلك لم تخرج بالنتيجة .

هذا العنصر هو الإيمان .

هناك أزمة إيمان ... أو قل أزمة عمل .

الإيمان الذى يجعل الإنسان ينسى نفسه ، ولا يتذكر إلا أنه فرد فى أمة لها حقوق ولابد أن تؤدى تلك الحقوق لأنها من صلب الدين ، والتخلى عنها يعتبر خيانة كبرى فى حق الله أولا ، وفى حق تلك الأمة ثانيا .

وعمل لابد أن ينجز فى أكمل صورة وأتم معانيها ، والتقاعس عن تأدية هذا العمل يعتبر نقضًا للعهد الذى بينه وبين الله ، وبينه وبين أمة محمد ﷺ .

وطالما لم ترتق تلك الأمة ، وتأخذ مكانها اللائق بها بين الأمم ، وطالما لم تستجمع أسباب القوة فى هذا العصر بجميع صورها وأنواعها . فلتشك تلك الأمة فى قوة إيمانها وليراجع كل فرد من أفرادها إيمانه وعمله .

إيمان بلا عمل لا قيمة له .

وعمل بلا نتيجة لا جدوى منه .

نتيجة لا تساهم فى رقى تلك الأمة هى نوع من الإفلاس .

أما إيمان عمر ، فهو إيمان يصل به لا إلى أنه سيقف فى يوم ما بين يدى الله يحاسبه ، بل يجعله يشعر أنه الآن فى اللحظة الآنية التى يعيش فيها – بين يدى الله وهو حى ، وهو سائر فى الأسواق ، وهو يتعسس وهو يأكل وهو يشرب ، وهو نائم، وهو صامت

وهو يتحدث الموت لا يمثل له انتقاله بين عالمين ، لا يوجد لديه هذا الانفصال الحاد بين العالمين ، فالله مطلع عليه فى الأولى ، ومطلع عليه فى الثانية ، فهو ميت وهو حى ، وهو حى وهو ميت . وهذا يوضح سلوكه بعدما طعن لم يشغله شىء مما يشغل المتيقن من الموت المقبل عليه ، وإنما شغله – ما كان يشغله دائما – حال المسلمين ... من الذى سيتولى الخلافة بعده ؟؟

لا وزير ولا أجير

ما الذى يمنع عمر أن يولى الخلافة ابنه (عبد الله) ؟

- مواصفات (عبد الله) ... تجتمع فى (عبد الله بن عمر) كل المواصفات التى تؤهله لأن يكون خليفة ، التقى والعلم والعفاف .. إلخ وقبل كل هذا فهو تربية عمر .
- اعتراض ... لا أحد يعترض إذا خرج عمر على المسلمين مسميا الخليفة الجديد بأنه (عبد الله بن عمر) فليس هناك ما يمنع عبد الله أن يكون خليفة .
- احتجاج ... لن يحتج أحد ... أن (عبدالله) قد أخذ حقه ، فالخلافة لم تكن من حق أحد من المسلمين ، ولن يوصى الخليفة بمن يأتى بعده ، ليس أمام المسلمين فى تلك اللحظة إلا السمع والطاعة . وشىء طبيعى أن يؤثر الخليفة أو الحاكم ابنه على الآخرين ، حتى ولو تساوى ابنه مع الآخرين فهو يرجح كفه ابنه المنطق الغريزى يؤكد هذا الترجيح ... وليس كون (عبد الله) أنه ابن الخليفة ذنبًا يعاقب عليه ويبعده عن الخلافة ويجعله لا يطمح أن يكون فى يوم من الأيام خليفة .

- الخلافة ممنوعة عن ابن عمر... لا لشيء إلا لأنه ابن الخليفة "حين دعى للقاء ربه ، واقتربت اللحظات التى سيودع فيها دنيا الناس ، وكانت مشغلته الكبرى آنئذ اختيار الرجل الذى يسلمه الأمانة والزمام ، اقترب منه (المغيرة بن شعبة) قائلا له : أنا أدلك عليه يا أمير المؤمنين ، إنه (عبد الله) هنالك انتفض (عمر) وقال : (لا إرب لنا فى أموركم إنى ما حمدتها) يعنى الخلافة – فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى .

إن كانت خيرًا فقد أصبنا منه .

وإن كانت شرًّا ، فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد ... إلا أنى قد جهدت نفسى وحرمت أهلى ، وإن نجوت كفافا لا وزر ولا أجر إنى لسعيد" (١)

الخلافة عبء ومسئولية ثقيلة ، وإذا كانت مقدرة على عمر ، وتحملها ، ولا يعلم هل أدى الأمانة أم قصر ؟ لا ، لا أحد من آل الخطاب يتولى الخلافة بعده ... لقد أشفق على ابنه منها ... وأخذ عمر يستشير هذا ويشاور ذلك ، ما فعله وما فكر فيه تفكير رجل الموت لا يمثل له أمرا ذا بال ، لا تشغله نفسه عن أمور المسلمين ، ورد على أناس طلبوا أن يحضروا له الطبيب فقال لهم : "ويحكم أيها الناس أأنظر فى أمر نفسى قبل أن أنظر فى أمور المسلمين"

وأرادها ولأول مرة شورى بين المسلمين : "قال : ادعوا لى عليا وعثمان وطلحة والزبير وابن عوف وسعد بن أبى وقاص . فلم يكلم أحدًا منهم غير على وعثمان فقال يا على لعل هؤلاء القوم يعرفون حقك وقرابتك من رسول الله ﷺ وصهرك وما آتاك الله من الفقه

١- بين يدى عمر- خالد محمد خالد – (٥٤) .

والعلم ، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله فيه . ثم دعا عثمان فقال : يا عثمان لعل هؤلاء القوم أن يعرفوا لك صهرك من رسول الله ﷺ وسنك وشرفك فإن وليت هذا الأمر فاتق الله . قال ادعوا لى صهيبًا فدعى له فقال : صل بالناس ثلاثا وليخل هؤلاء القوم فى بيت ، فإذا اجتمعوا على رجل فمن خالف فاضربوا رقبته فلما خرجوا من عنده قال : أن تولوها الأجلح يسلك بهم الطريق ؟، فقال ابنه : فما يمنعك يا أمير المؤمنين ؟

قال : أكره أن أتحملها حيا وميتًا"

هل هناك قوة إيمان بعد ذلك ؟

رجل يعرف ألا مناص من الموت ، ينزف دمًا من أثر الطعنة القاتلة ، ينتظر الموت بين لحظة وأخرى ، وهن الموت يتسرب إلى جسده والباكون حوله ينتظرون اللحظة الفارقة

الإسلام .

المسلمون .

لا شاغل يشغله عنهما .

والدقائق الأخيرة من حياة عمر – وكل دقائق حياة عمر كانت أخيرة بالنسبة له مهمة للغاية ، فهى دقائق كاشفة عن معدن أى رجل ، تلك الدقائق المعدودات تلخص حياة طويلة عريضة ، حياة شريفة نبيلة .

يستخلف أم لا يستخلف .

كلا الأمرين جائز أمامه .

فإن لم يستخلف فقد اقتدى بالرسول ﷺ .

وإن استخلف فقد اتبع أبا بكر الصديق

يعز عليه ألاَّ يقتدى بنبيه ، ويصعب عليه ألاَّ يتبع صاحبه .

فليجمع بين الأمرين ، يستخلف ولا يستخلف فى نفس الوقت ويخرج بأمر ثالث لا قبل للمسلمين به ، ومبرر اختياره للصحابة الأجلاء بعينهم دون غيرهم ، أن الرسول ﷺ مات وهو عنهم راضٍ ، مبرر حق وصدق ، وكان ضمن الستة الصاحبىّ (سعد بن أبى وقاص) وكان عمر قد عزله ، وخشى أن يظن الناس أنه عزله عن مظنة ، فأراد أن يبرىء ساحة سعد ، قال : "فإن أصابت الإمرة سعدا ، فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ، فإنى لم أعزله من عجز ، ولا خيانة"

الجرح القاتل ينزف ، والجسد يضعف ، واليقين يقترب شيئًا فشيئًا ومع ذلك لا ينسى عناصر الأمة الإسلامية فيوصى بها عنصرًا عنصرًا "أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرفتهم ، وأوصيه بالأنصار خيرا ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ... ﴾[1] أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم وأوصيه بالأعراب خيرًا ، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام . أن يأخذ من حواشى أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وألا يكلفوا إلا طاقاتهم"

رجل لم يخرجه انتظار الموت عن مألوف عادته ، وكأنه آل على نفسه ألا يترك مسئوليتها إلا مع آخر نفس يتردد فى هذا الجسد المسجى الممزق الأديم .

١- سورة الحشر : من الآية ٩ .